الباب الثانى

الإسلام وتنمية الشخصية عقليا ونفسيا وعضويا وسلوكيا

تمهيد : موجز عن الحرية باعتبارها أبرز الملامح للتنمية الشخصية

الفصل الأول : الحرية وطبيعة النشأة الإنسانية .

الفصل الثانى : كيف تنمو الإمكانات والقدرات ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الحرية

تمهيد موجز :

الحرية فى الإسلام متسعة الجنبات ، كثيرة الأبواب ، وأهم ما يعنينا منها هنا هو ما يجعل الإنسان أهلا لتحمل تبعة أعماله ، بمعنى أن يكون حرا فى اختياره لأعماله .

فالاختيار الحر إذن هو ما نعالجه الآن من واقع نصوص الوحى قرآنا وسنة .

وحديثنا عن أبرز الملامح فى حرية الاختيار الإنسانى ، فما ينبغى أن ننسى للحظة واحدة ، أن الحرية الإنسانية نعمة من الله منحها للإنسان كسائر النعم الكثيرة التى أنعم بها الله سبحانه على عباده وهى نعمة حق وصدق ، أعطاها الله لعباده كاملة الأركان تامة البنيان ، فمن ورائها النية والقدرة ، وبين يديها طرفا كل متاح لها وممكن من خير وشر ، والأمر كله من نية وإمكاناتها ووسائلها فى إطار الحادثات التى خلقها الله وأوجدها ، وكمالها وتمامها فى هذا الإطار لا يتصل من قريب أو بعيد بمزاحمة القدرة العليا أو المطلقة كما سيأتى بيانه ، تعالى الله عما يصفون .

ومن أسباب كمال القدرة الإنسانية فى باب الحوادث تعدد جوانبها وتآلف أجزائها التى يمكن ملاحظتها بالنظر العابر .

ويهمنا أن نقول هنا للتذكير : إننا حين نذكر تعدد الجوانب وتآلف الأجزاء كى نعتبره كمالا فى القدرة الإنسانية ومشيئتها فلا ننسى أن التعدد والتآلف والجوانب والأجزاء أمور تتنزه عنها تماما ذات الله وصفاته ، وإذا كانت هذه الأشياء آية كمال فى الحوادث ، ودليل إبداع وجمال فى نظامها ، فهى أمور محالة على الصفات القديمة فضلا عن كونها آية نقص تبطل نهائيا نسبتها إلى الله .

ومن النظر العابر نستطيع أن نلاحظ أن من جوانب القدرة الإنسانية ما هو عضوى أو مادى ومنها ما هو عقلى أو معنوى ، وكلاهما من حيث المبدأ أمر فطرى

من نعمة الله سبحانه ومن خلقه وإيجاده ، يحتاج إليه المخلوقون وينفعهم ، ولكن الله غنى عنه ولا يجوز أن يكون من أوصافه .

كما يمكن أن نلاحظ مع شيء من التأمل اليسير أن الله سبحانه وتعالى جعل التكاليف الدينية متكافئة مع مستوى القدرة الإنسانية ، بل ويتفاوت إلزامها للعباد وفق تفاوت أحجام قدراتهم ، والقاعدة القرآنية فى هذا واضحة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، وإذا كان هذا التفاوت فى الإلزام برهانا بين يدى عدالة الله والجزاء الحق ، فهو فى نفس الوقت برهان يحكم ويقضى بحدوث الإنسان وقدرته .

وإذا كانت قدرة الإنسان حادثة بتعدد جوانبها وتآلف أجزائها وتفاوت مستوياتها وأحجامها فإن هذه الأوصاف تجعل من هذه القدرة الحادثة آية إبداع وإتقان وكمال فى صنعة الله لها .

ولكن هذه القدرة مع ما فيها من أوصاف الكمال فى الحوادث هى قدرة عاجزة وفقيرة لمن خلقها وأوجدها ، فصفات كمالها وتمامها فى الحوادث هى نفسها صفات احتياجها وفقرها لله خالقها وموجدها ، فلا تناظر البتة إذن بين القدرتين أو المشيئتين ، وهذه المخالفة التامة بين القدرتين أو المشيئتين ، وهذه المخالفة التامة بين القدرتين كافية وحدها لنسف شبهة الجبر التى تتمحك بها العقول البليدة فى غباء شديد .

بيد أن شبهة الجبر داحضة من الأصل ؛ لأنها تتنافى أساسا مع الحكمة العليا لخلق الله وإبداعه سبحانه لقدرة الإنسان ثم تكليفه ومجازاته ، وسنرى أن القرآن والسنة تظاهرا فى التأكيد على نفى هذه الشبهة مع إثبات المشيئة لله سبحانه ، دون أى تعارض بين هاتين الحقيقتين .

إن للإسلام منهاجا خارق الإعجاز فى استيعاب جوانب هذه القضية وتجليتها للناس كافة ، ونصوص القرآن والسنة تغطى الموضوع كله تغطية كاملة بما فى ذلك الشبهات المعقدة التى آثارها شطط العقل الإنسانى فى مختلف العصور والدهور ، ونتناول فى هذا الفصل أبرز المعالم التى ذكرناها فى هذا التمهيد على ضوء نصوص من السنة المؤيدة بالقرآن الكريم .

ولسوف يتبين لنا بعد استعراض النصوص التى عالجت هذا الموضوع أن الحرية الإنسانية أو الاختيار الحر ، أو إرادة الإنسان ومشيئته ، وما يمت إلى هذه الهبات بصلة مباشرة أو غير مباشرة ، جميعها أمور أبدعها الله على أروع وأتم ما يكون الإبداع جمالا وإعجازا .

ومن هنا فهى بالضرورة فقيرة ومحتاجة إلى خالقها وموجدها من جهة ، وهى من الجهة الأخرى تستطيع بمشيئة الله أن تختار وتفعل ما تشاء ، ونصوص الوحى وحدها هى القادرة على أن تفسر لنا هذا الأمر ، تفسيرا يشرح الصدور ويقنع العقول وينير البصائر .

*****

obeikandl.com

الفصل الأول
الحرية وطبيعة النشأة الإنسانية

إن القول بالعقل وحده فى طبيعة النشأة الإنسانية إعمال للعقل فى مجال خارج عن نطاق قدرته وطاقته ، فما يزال العقل عاجزا عن التأريخ الدقيق لشتى أنواع الحضارات التى وجد الإنسان فعلا آثارها وأخضعها للدراسة والتى كانت من صنع آبائه وأجداده ، وما بضعة آلاف من السنين بالشيء الذى يذكر فى عمر الحياة ، ومع ذلك فالإنسان يقف عاجزا فيما هو دونها من السنين .

ولنأخذ مثلا أهرامات القدماء المصريين وهى أثر حضارى ذو شهرة عالمية منقطعة النظير وتولى دراسته وبحثه وتحليله علماء أفذاذ من كل نوع وجنس ، وصور بأشعة « الليزر » فى السنوات الأخيرة وهى من آخر ما توصل إليه العلم ، ومع ذلك كله فلا زالت أسرار الهرم الأكبر عصية على عقل الإنسان . وحتى هذه اللحظة لم يعطنا العقل حكما يقينيا عن الكيفية التى استخدمها بناة الهرم الأكبر فى لصق أحجاره ، ولا زالوا يبحثون عن باقى حجراته ، حتى الوسيلة التى استخدمت فى رفع أحجاره الثقيلة إلى أماكنها العالية مجرد نظريات واستنتاجات يرجحها القائلون بها .

فكيف ـ والحال هذه ـ إذا أقحم العقل الإنسانى نفسه فى أعماق سحيقة من الماضى البعيد الذى صحب وجوده وخلقه ، تلك الفترة التى لم يشهدها لأنه لم يكن شيئا مذكورًا ، ولقد قال الله سبحانه فى شأن بعض خلقه حين تجاوز المشركون بأقدارهم حدود البشر : ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١] .

إذن فإن الذين قالوا بعقولهم وحدها فى طبيعة النشأة الإنسانية كان لا بد أن يجانبهم الصواب ، وكانت هذه المجانبة للصواب على حساب الإنسان نفسه ، حيث

مضت بهم الأفكار دون ضابط وكيفما اتفق ، فأساءوا للإنسان إساءة فى أصله واستعداده وأخلاقه .

أما إساءتهم للإنسان فى أصله ، فما زال الفكر الإنسانى فى متاهات من الباطل ، حتى وصلت به هذه المتاهات إلى الادعاء بأن الإنسان قد يرتد فى أصله إلى عالم الحيوان والقردة .

وأما إساءتهم للإنسان فى أخلاقه واستعداده فقد حدثت حين ضل العقل فأقحم نفسه فى الكتب السماوية السابقة على القرآن ، فحجب من نصوصها أو غيَّر وبدَّل وأضاف ، فإذا « بالخطيئة » عند هؤلاء مغروسة فى دم الإنسان منذ عهد آدم ، وأسلمهم هذا الانحراف من ضلال إلى ضلال فظلت اللعنة تلاحق ذرية آدم من فعلة لم يرتكبوها ، ثم تخلصت الإنسانية من لعنات الخطيئة بأسلوب أشد نكرا وغرابة ، حيث افتدى البشرية وخلصها غريب ليس من أبناء آدم فيما يزعمون ، وإنما هو ابن الإله نفسه ، تعالى الله عما يصفون .

وهكذا كانت خرافة الابن المصلوب التى اغتالت فى طريقها مبادئ الحق والعدل والأخلاق لأنها اغتالت قبل ذلك وظيفة التفكير وجوهر العقل وتوجيه الوحى ، فكان طبيعيا أن تسقط بأصحابها فى هذه الهوة السحيقة التى أفقدتهم التصور الصحيح فى ثلاثة اتجاهات أساسية ، فى صلة الإنسان بربه وفى صلة الإنسان بأنبيائه ، وفى صلة الإنسان بنفسه .

أفقدتهم الاعتقاد الحق فى وحدانية الله سبحانه بصفة خاصة ، وفى كماله المطلق وتنزهه عن كل نقص بصفة عامة ، كما حرمتهم التصديق بنبوة سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام بصفة خاصة ، ومعرفة حق الأنبياء جميعا بصفة عامة .

وتبع ذلك أنهم فقدوا التصور الصحيح عن أنفسهم وعن الإنسان من حيث النشأة وطبيعة الكرامة والخير والمسئولية .

وهكذا كان انقطاعهم عن القرآن الكريم ، وهو آخر كتاب من كتب الوحى وهو الكتاب الذى وعد الله بحفظه من التحريف والتغيير والتبديل ـ سببا فى ضياع أثمن فرصة أتيحت فى معرفة العقيدة اليقينية عن الله وعن أنبيائه وخاتم كتبه وعن أنفسهم ، والأمر الأخير من هذه الأمور الثلاثة ، هو الذى يدور حوله الحديث هنا فى هذا الفصل ، ونعنى به : « بداية النشأة الإنسانية كما أنصفها الإسلام »[1] .

وأول ما ينبغى التذكير به ، هو أن الميزة التى تتوفر فى تقيدنا بالنصوص القرآنية والنبوية هى تجنب الخطأ الذى وقع فيه غير المسلمين وبعض المسلمين الذين تابعوا غيرهم حيث لم يحسنوا التفريق بين ما يستقل العقل بإدراكه وما لا يستقل ، وبناء على هذا التفريق الضرورى تكون النصوص الدينية الصحيحة هى أهم وسيلة لاكتساب المعرفة الحقة عن بداية النشأة التى لا يملك التاريخ الوضعى وثائقها ، حيث يحتاج الإنسان إلى غيره حاجة ملحة ليقص عليه كيف وجد .

ولكن إذا كانت هذه الميزة على جانب عظيم من الأهمية لتحصيل معلومات صحيحة عن النشأة الإنسانية ، فما هى طبيعة هذه المعرفة الحقة ، وما نوعية معلوماتها الصادقة ، حتى تشكل عنصرا حيويا فى موضوع المسئولية من الجانب الإنسانى الذى نعنى بدراسته ؟

لعل الفكرة التى ألمحنا إليها آنفا عن المساءة التى لحقت بالإنسان بالانتقاص فى أصله ، والطعن فى استعداده الأخلاقى ، تشير إلى جواب هذا السؤال ، ذلك أن الإنسان يبدو على غير هذا النحو من خلال النصوص الإسلامية فى القرآن والسنة ، فهما يثبتان بما لا يدع مجالا للشك أن الاستعداد الفطرى للإنسان استعداد أخلاقى ممتاز ، كما يثبتان إنسانية الإنسان منذ خُلق .

---

(١) انظر ابن قيم الجوزية فى كتابه (مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) ج ١ ص ٣ ـ ٤٨ ط أولى ١٣٢٣هـ .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١] .

ومعنى الإثبات الأول : أن الإنسان كائن مهيأ للخير بفطرته الطاهرة .

ومعنى الإثبات الثاني : أن الإنسان عريق الجذور فى المسئولية منذ نشأته ، فلم يتوسط نشوءه ارتقاء خرافى من طور القردة أو غيرها .

وهذا أدعى بالطبع كى يجعل من الإنسان كائنا مهيأ للمسئولية وجديرا بها ، بدل أن نكبله ــ زورا وبهتانا ــ بالخطيئة التى تسرى فى دمه ، واللعنة التى حاقت به وبجنسه ، ومذلة الاعتراف بأسراره لغير الله سبحانه ، بهدف تخليصه من آثار الأوزار بأسلوب مذر ومفتعل وغير معقول ، ينتحل فيه مخطئ حق المغفرة لمخطئ مثله ، فهل بعد هذا الانحراف والفساد فى التفكير انحراف أو فساد ؟

لقد جاء الإسلام غنيا بنصوص الوحى التى تمحو عن الإنسان أمثال هذه المثالب المشينة ، وترد له وضعه واعتباره وكرامته .

فمن حيث المبدأ العام لكرامة الإنسان ومنزلته بين سائر المخلوقات والكائنات نجد قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠] .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة كما قال المفسرون :

وعن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ قال : « **إن الملائكة قالت : يا ربنا أعطيت بنى آدم الدنيا ، يأكلون ويشربون ويلبسون ، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ، قال : لا أجعل صالح**

ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان » [١] .

وقد ذكر الإمام ، بن كثير بعض الآثار التى تشبه هذه الحديث عن ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن عمر . وذكر أن شبيها لهذا الأثر رواه أيضا الإمام عثمان بن سعيد الدارمى فى كتابه « الرد على الجهمية » وذلك عند تفسيره لقول الله سبحانه : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة:١٠-١٢] .

ونجد أيضا فى مقام تكريم الإنسان قوله تعالى : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين:١-٤] .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ، جواب القسم ، أى لقد خلقنا جنس الإنسان فى أعدل قامة ، وأحسن صورة ، مكملا بالعقل والمعرفة ومتصفا بالحياة والعلم ، والإرادة والقدوة والسمع والبصر والكلام والتدبير والحكمة [٢] .

وأوضح وأصرح فى الدلالة على فضل آدم عليه السلام آيات سورة البقرة ، فعند قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١] .

قال الإمام ابن كثير : هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة .

وفى تفسير هذه الآية روى الإمام البخارى عن أنس عن النبى ﷺ قال : « **يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك .....** » إلخ [٣] .

---

(١) رواه الحافظ الطبرانى وأخرجه عبد الرازق عن زيد بن أسلم موقوفا ، وابن عساكر عن أنس ابن مالك مرفوعا .

(٢) التقويم : التثقيف والتعديل « كتاب صفوة البيان فى معانى القرآن » الشيخ حسنين مخلوف .

(٣) أخرجه البخارى عن أنس بن مالك ورواه مسلم والنسائى وابن ماجة .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [البقرة:٣٤] .

قال ابن كثير : وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم .

من هذه النصوص القرآنية والنبوية وتفسيرها يتضح يقينا أن الإسلام ينظر للإنسان نظرة كريمة منذ نشأته ، وهذه النظرة تتفق مع الواقع والفطرة ، وهى من حيث المبدأ تشهد للإنسان بأنه خلق على درجة من الرقى والرفعة بل وتفوقت فى أول إنسان على الملائكة وهم من هم منزلة ومكانة عند الله سبحانه ، ويكفى أن الله قد اصطفى من الناس أنبيائه ورسله .

وإذا كان هذا من حيث المبدأ العام يؤهل الجنس البشرى لتحمل أرقى درجات المسئولية ، فإنه من حيث التفصيل عن طبيعة النِشأة الإنسانية وردت النصوص الكثيرة الصريحة التى تقطع بتحمل الإنسان للمسئولية على وجه دقيق ، ونختار من هذه النصوص طائفة من الآيات والأحاديث نبدأ منها بقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢] .

قال ابن عباس : يعنى بالأمانة « الطاعة » ، وكذلك قال آخرون ، وعنه أنها : « الفرائض » وتابعه مجاهد والضحاك والحسن البصرى .

وقال قتادة : الأمانة : « الدين والفرائض والحدود » .

وقال زيد بن أسلم : هى الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة .

وعلق ابن كثير على هذه الآراء بقوله : وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهى بشرطها .

وقد أورد الشيخ مخلوف تلخيصا جيدا لاتجاهات بعض المفسرين فى الآية فقال :

« عرضنا الأمانة » : هى التكاليف والفرائض ، أو كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى ، وشأن دين أو دنيا ، وسميت أمانة لأنها حقوق أودعها الله المكلفين وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم مراعاتها والمحافظة عليها ، وأدائها من غير إخلال بشيء منها .

ونقل القرطبى عن القفال وغيره أن العرض فى الآية ضرب مثل ، أى أن هذه الأجرام على عظمتها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من العقاب والثواب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد حمله الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل وفى القرآن من ضرب الأمثال كثير .

وقيل : الآية من المجاز ، أى أنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فعبر عن هذا بعرض الأمانة ، كما تقول : « عرضت الحمل على البعير فأباه » ، وأنت تريد : قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه [١] .

ولا يخفى أن الاتجاه الأول لا يخرج عن النقول التى أوردها الإمام ابن كثير وأضاف عليه أن يكون فى الآية ضرب من التمثيل أو المجاز وسيأتى تعليقنا على ذلك بعد الفراغ من ذكر بقية النصوص إن شاء الله ومن هذه النصوص الكريمة قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] .

خليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه ، فهو فعيل بمعنى فاعل والتاء فيه للمبالغة .

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن للشيخ مخلوف .

والمراد به آدم عليه السلام ؛ لأنه كان خليفة لله فى الأرض وكذلك سائر الأنبياء استخلفهم الله تعالى فى عمارة الأرض وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم ، وإجراء أحكامه عليهم وتنفيذ أوامره فيهم .

وقيل آدم وذريته ؛ لأنه يخلف بعضهم بعضا فى عمارة الأرض ، واستغنى بذكره عن ذكر ذريته لكونه الأصل [1] . لكن هذا الرأى الذى نقله الشيخ مخلوف وجعله أصل المسألة فى المراد من الخليفة لم يرتضه الإمام ابن كثير ، ونفاه نفيا قاطعا فقال : وليس المراد ها هنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقول طائفة من المفسرين ، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠] ، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك .

ثم أورد ابن كثير عدة آراء فى معنى الخلافة وفى كيفية علم الملائكة بالفساد وسفك الدماء .

وسواء كانت الخلافة التى أرادها الله للناس عن الله سبحانه ، أو هى خلافة الناس للناس قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، أو هى خلافة الناس لأوادم سبقتهم ، أو ـ حتى ـ للجن كما ذكر ابن جرير عن ابن عباس .

سواء كان هذا أو ذاك فإن للخلافة ما يقتضيها من مسئوليات الخلافة وتبعاتها ، وعليه فالآية الكريمة نص صريح ومباشر فى أن الجنس البشرى كان أهلا للمسئولية منذ هذه النشأة ، وهذه المسئولية وحديث الله تعالى عنها للملائكته كانا ولا شك سابقين على وجود الإنسان نفسه ، ولذلك قال ابن كثير :

يخبر تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملأ الأعلى قبل إيجادهم بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ .

---

(١) صفوة البيان للشيخ مخلوف .

على أن سياق القصة فى سورة « الحجر » فيه خطاب للملائكة بأن خلق آدم سيكون بعد مخاطبة الله سبحانه لملائكته : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧٢] .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩] .

بل هناك نصوص أخرى متخصصة فى دلالتها على أن الناس جميعا يولدون طهارا أنقياء من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[الروم:٣٠]

والفطرة : قابلية الدين الحق والتهيؤ لإدراكه وهى دين الإسلام والتوحيد ، ومعنى ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ : أن الله سبحانه خلقهم قابلين الدين الحق غير نابين عنه ، منساقين إليه إذا خلوا وأنفسهم دون أن تعترضهم الأهواء والوساوس [١] .

ويفسر ذلك قول رسول ﷺ : « **ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** » [٢] .

وبل ومن قبل مرحلة الولادة حيث يكون الإنسان بذرة فى دور تطوير الجنين فى الأرحام يعالج الإسلام قضية الجهد والمسئولية وكتابتها على المخلوقين ، فقد روى البخارى عن زيد بن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « **إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : أكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح . فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع**

---

(١) مخلوف فى صفوة البيان .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم .

فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة »[١] .

ويخطئ خطأ بالغًا من يظن أن هذا الحديث يتعارض مع تمام أهلية الإنسان للمسئولية ، ذلك أنه مسوق للحث على العمل بمقاصد ثلاثة :

أولها : تحذير أصحاب العمل الصالح من المفاجآت التى تحبط العمل ، وهنا ينتفى تماما خطر الغرور والكبر والنفاق والرياء ، وسائر الأمراض الباطنية التى قد تعرض مرتكبها لعقوبة الطرد وسوء الخاتمة .

ثانيها : إثارة الأمل فى نفوس الذين أسرفوا على أنفسهم حين يبشرهم الرسول ﷺ بإمكان تبدل أمورهم من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، حيث تنشط عزيمتهم وتقوى إرادتهم فيتغير سلوكهم من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح فى لحظة حاسمة .

ثالثها : لفت نظر الطائعين والعصاة إلى التوجه إلى الله ، فاللجوء إليه سبحانه يفضى دائما إلى إثارة القدرات والإمكانات نحو ما يرضى الله وبعدا عما يغضبه .

وهذه المقاصد الثلاثة تثير فى الإنسان ملكة المسئولية الراشدة التى تتجه بصاحبها إلى صراط الله المستقيم .

بل وهناك نص قرآنى يعود بقضية المسئولية إلى ما هو أعمق من أطوار الأجنة فى بطون أمهاتها وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢] .

---

(١) أخرجه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه ، وأخرجه مسلم ، وأبو داود والترمذى ، وابن ماجة ، كما أخرجه أحمد فى عدة مواضع من مسنده .

ويقول الإمام ابن كثير : يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه . وقد اعتمد ابن كثير فى تفسيره للآية على آية سورة الروم السابقة .

كما أورد أحاديث المولد على الفطرة ، ومنها ما رواه ابن جرير عن الحسن بن أبى الحسن عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال : غزوت مع ﷺ أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال : « **ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟** » ، فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال : « **إن خياركم أبناء المشركين ، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها** » .

قال الحسن : والله لقد قال الله فى كتابه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] (١) .

ومنها ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به ؟ قال : فيقول نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي** » (٢) .

احتياط ابن كثير ودقته العلمية فى الموضوع :

لقد أورد الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث والأخبار والآثار فى هذا الموضوع

---

(١) وقد رواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى ، وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال : حدثنى الأسود بن سريع فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك .

(٢) أخرجه الشيخان فى الصحيحين من حديث شعبة به .

ثم لخص الموضوع فى العبارة الدقيقة التالية :

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا فى حديث كلثوم ابن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفى حديث عبد الله بن عمرو ، وقد بيَّنا أنهما موقوفان لا مرفوعان .

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد . أ.هـ (ابن كثير) .

وقد آثرنا إيراد هذين الحديثين الموقوفين إتماما للفائدة :

١ ـ قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير ـ يعنى ابن حازم ـ عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣] .

قال ابن كثير : وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه ـ عن حسين بن محمد المروزى ـ به ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم ابن جبير ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير ـ هكذا قال : وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، وكذا رواه اسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن جبير عن أبيه به ، وكذا رواه عطار بن السائب وحبيب بن أبى ثابت وعلى بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وكذا رواه

العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فهذا أثبت وأكثر والله أعلم .

وقال ابن جرير ـ بسنده ـ عن ابن عباس قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو فى أذى من الماء ، وقال أيضًا : حدثنا على بن سهل بسنده عن جرير قال : « مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام ، قال : فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه ، وحل عنه عقده فإن ابنى مجلس ومسئول ففعلت به الذى أمره ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله عما يسأل ابنك من يسأله إياه ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ، قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ، قال : حدثنى ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم فى صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة » .

فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم .

٢ ـ **قال ابن جرير** : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد ، حدثنا أحمد بن أبى طيبة عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ، قال : أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ .

أحمد بن أبى طيبة هذا هو أبو محمد الجرجانى قاضى قومه كان أحد الزهاد أخرج له النسائى فى سننه ، وقال أبو حاتم الرازى يكتب حديثه ، وقال ابن عدى حدث

بأحاديث كثيرة غرائب .

وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدى عن سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو . وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم .

ونستطيع أن نخلص من هذه النصوص وما يماثلها بأن المسئولية مركوزة فى طبيعة الإنسانية ، وأنها محاطة بسياج من العناية والرحمة والتكريم .

وإنه لا عبرة بأى انحراف فكرى ينتقص من قدرة هذه الفطرة التى لا تقبل التغيير والتبديل .

وأن القول بغير ذلك مجاف للحقيقة والصواب ، فهكذا خلق الله فطرة الناس ولا تبديل لخلق الله .

وقفة عند هذه النصوص :

فى النصوص التى سبق ذكرها تكمن قاعدة انطلاقنا إلى دعامات المسئولية ، وما نزال نذكر من النصوص التى سبقت أمورا ثلاثة :

١ ـ كلمة « الأمانة » التى وردت فى آية سورة الأحزاب وفسرها العلماء تفسيرا نقليا ، بالتكاليف والفرائض ، أو الطاعة أو الدين والحدود أو الصلاة أو الصوم والطهارة .

وتفسيرا عقليا لغويا يتجه إلى ضرب المثل والمجاز .

٢ ـ كلمة « خليفة » فى آية سورة البقرة التى قال الله فيها : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وما نقلناه آنفا من آراء العلماء فى معنى الخلافة ، وهل هى خلافة عن الله سبحانه أم عن الناس بعضهم لبعض ، أم عن أوادم آخرين ، أم عن الجن ؟

وما تبع ذلك من سؤال الملائكة لله سبحانه : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ ، وما تضمنه جواب هذا السؤال من تعليم آدم جميع الأسماء وعرضها على الملائكة وعجزهم عن معرفتها وإنباء آدم بها .

٣ ـ الإشهاد فى آية الأعراف التى قال الله سبحانه فيها : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ والآراء التى وردت فى معنى الإشهاد هل هو أخذ الميثاق فى عالم الذر أم هو الفطر على التوحيد ... إلخ .

هذه نصوص ثلاثة دارت حولها أبحاث كثيرة ، وليس هذا السبب وحده الذى دعانا لاختيارها دون غيرها لتكون قاعدة انطلاقنا للحديث عن موهبة الاختيار الحر التى خصصنا لها الفصل الأول من هذا الباب ، بل وليس هذا السبب أصيلا ـ فى حد ذاته ـ لاختيار هذه النصوص دون غيرها .

وإنما كان سبب الاختيار الأصيل أننا نرى فى هذه النصوص التى تعددت حولها الآراء مفتاحا أساسيًا لنعمة الحرية التى أكرم الله بها الإنسان ، وكانت له فى نفس الوقت أعظم بلاء وأخطر امتحان .

وتوضيح هذا الرأى فى بساطة وإيجاز أن كل التوضيحات والتفاسير النقلى منها والعقلى لهذه النصوص تدور كلها فى واقع الأمر حول الحرية الإنسانية بصفة مباشرة .

١ ـ فكلمة « الأمانة » التى فسرت بالتكاليف والفرائض ونحوهما تارة ، أو بالتمثيل تارة أخرى ، نستطيع القول باطمئنان وثقة عن هذه التفاسير : أنها تنتهى كلها بلا أدنى شك إلى « الحرية الإنسانية » ، بمعنى أن مسئولية التكاليف والفرائض والأحكام الإسلامية العامة ـ أيا كان المنوب عنه وسواء كان على سبيل التمثيل والمجاز أم على سبيل الحقيقة لا يتأتى تصور هذه المسئولية بطرفيها من طاعة

ومعصية إلا من كائن منح حرية القبول والرفض ، والأمانة بهذا الاعتبار هى حسن استعمال هذه الحرية إزاء الوحى الإلهى وما تتضمنه من تعاليم ، فالحرية إذا هى الأصل الذى يكون به المرء أمينا أوغير أمين ، وبها يتحدد موقف الإنسان من التكاليف والفرائض وهذا التفسير لا ينافى التفاسير التى قال بها المفسرون ؛ لأنها أصل لها وهى فرع عنها .

ويتبين صواب هذه النظرة حين ننظر إلى كلمة « الطاعة » كتفسير للأمانة ، فإننا نراها بحاجة إلى أوصاف تحددها حتى تنطبق على الإنسان الذى حملها فقط [1] ، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لأن الملائكة يتصفون بالطاعة ، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، بل والكائنات من أرض وجبال وسماء مطيعة لله مع أن القرآن قال عنها : ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ .

وستجد أن الوصف الذى ينبغى وصف الطاعة به كى تكون خاصة بالإنسان سيعود بالأمر إلى « الحرية » حتما ، فإن الوصف الضرورى أن تقول : الطاعة عن اختيار ، أو الطاعة مع استطاعة عدمها أو مع القدرة على اختيار المعصية ، هذا من جانب ، أما الجانب الآخر : فهل يعقل إذا كانت الأمانة بمعنى الطاعة أن يقول القرآن عن حمل الطاعة : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

فإذا قيل : لتكن الأمانة التكاليف والفرائض .

قلنا : إذن فقد اقتربنا إلى « الحرية » بصورة مباشرة فقد سبق أن بينا أن مسئولية التكاليف والفرائض لا يتأتى تصورها فى الإسلام إلا من كائن منح حرية القبول أو الرفض .

---

(١) لا يغيب عن الأذهان أن الجن مخاطبون بالتكاليف لكنهم غير مقصودين فى هذه الآية الكريمة ونحن بصدد الحديث عن المسئولية الإنسانية .

على أننا نكرر أن الذى نفعله هو مجرد تحرير الأصل الذى تعود إليه هذه المعانى ، بمعنى أننا نسلم بأنها من لوازم هذا الأصل أو من جزئياته ، ونحن لا نقف منها موقف الرفض أو الخصومة بل هى الطريق الطبيعى الذى يؤدى إلى أصولها المركوزة فى الحرية ومن هنا قلنا آنفا ولا زلنا نقول : الحرية إذن هى الأصل الذى يتحدد به موقف الإنسان من التكاليف .

٢ ـ ويزيد من وضوح هذا الرأى النظر إلى كلمة « خليفة » وما تبعها من سؤال الملائكة وإجابتهم . فطبيعة الخلافة أو الإنابة أن يتصرف الخليفة أو النائب بهذه الوكالة عن المنوب عنه ، وكأنه هو الذى يتصرف ، ومن المناسب هنا أن نقرر مسألة طالما آثارها العلماء ، وهى من أين للملائكة العلم بأن هذه « الخليفة » سيقع فى شيء من الإفساد فى الأرض وسفك الدماء ، وحين يتم تقرير هذه المسألة يتضح بصورة أكثر جلاء ارتباط الحرية الإنسانية باستخلاف الإنسان فى الأرض .

فإذا عدنا إلى السؤال التقليدى عن المصدر الذى علم الملائكة عن طريقة الإفساد وسفك الدماء وجدنا أن مفتاح الإجابة على هذا السؤال يكمن فى أمر بديهى عند الملائكة وإن ذهل عنه الكثيرون لشدة ما لابسه من ظهور .

ذلك أن كائنًا غير الله مهما كان شأنه ، لا بد أن يعتريه شيء من الخطأ قليل أو كثير إذا أعطى حق التصرف بحرية لسبب بسيط جدا وهو : أن الكمال لله وحده وغير خافٍ أن الملائكة عباد مكرمون ، وهم خلق تخصصوا فى تقديس الله سبحانه وتوحيده وتسبيحه وتنزيهه ، وهم بطبيعتهم مجبولون مفطورون على الطاعة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وعباد هذا شأنهم فى معرفة كمال الخالق جلَّ علاه يدركون على الفور والبداهة أن ما سوى الله عار عن الكمال المطلق [1] فإذا

---

(١) جاء فى شرح الإمام البيجورى على جوهرة التوحيد عند قول اللقانى : «فكل من كلف شرعا ... إلخ » ما يأتى : كل من كلف أى كل فرد من المكلفين من الإنس والجن دو ن الملائكة ولو قلنا =

ما أعطى قدرا من حرية الاتجاه والسلوك فستكون نتيجة هذا السلوك والاتجاه متجانسة مع صفاته الحادثة ، ولذلك ليست القضية هنا قضية غيب علمته الملائكة حتي يدور جدل عن الطريقة التى علموا بها هذا الغيب إذ يكفى أن يخبرهم المولى سبحانه بأنه جاعل فى الأرض « خليفة » أى كائن له بواقع الاستخلاف نوع ما من الحرية ، يكفى ذلك لإحداث مقارنة فورية عند الملائكة بين الخليفة الحادث وما يتوقع من عجزه ونقصه وبين المستخلف القديم وما يعرفون من حكمته وكماله ، وتكون نتيجة هذه المقارنة لا محالة حكما بدهيا بوقوع خلل من هذا الخليفة يصل إلى حد الإفساد وسفك الدماء .

وإذن فالمشكلة التى سأل عنها الملائكة هى مشكلة الحرية التى ستمنح لهذا المخلوق الحادث بحكم مقتضيات استخلافه وإدراكهم الحق أن وراء هذه الحرية الحادثة صفات يصحبها نقص الحدوث وعجزه وأخطاره ، وهذا الذى عرف للملائكة بداهة عقيدة حق تفرق بين الخالق والمخلوق وبين الحادث والقديم ، وسياق الآيات يمضى حثيثا مع هذا التحليل ، ولولا حذر الاستطراد لمضينا مع هذا السياق الواضح إلى آخر الشوط ، ولكن يكفى أن نقول : إن خطاب الله لملائكته فى ختام الآية بعد سؤالهم لله : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ هذا الخطاب لا يشير من قريب أو بعيد إلى أن فى سؤال الملائكة أية نقطة من نقط الضعف التى تعترى البشر ، والملائكة عصمهم الله من الخطأ ، فلا هم اعترضوا على الله سبحانه بهذا السؤال ، ولا هم نفسوا على آدم

= بتكليفهم إنما هو بالنسبة إلى غير معرفة الله تعالى فإنها جبلية لهم فليس فيهم من يجهل صفات الله تعالى كما فى الجن والإنس ولذلك قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨] ، فلم يطلق الأمر كما أطلقه فى الملائكة ، « حاشية البيجورى على الجوهرة ص ١٨ طبعة دار إحياء الكتب العربية » .

« حاشا لله أن يفعلوا ذلك » غير أن الجانب السلبى فى الحرية الحادثة ـ وهو أمر معلوم ومسلم بالضرورة ـ أخفى عليهم الجوانب الإيجابية فى هذه الحرية الحادثة ـ وهو أمر لم يحطهم الله بعلمه ـ فما كان لهم إلا أن يسألوا الله سبحانه ، مجرد سؤال نقى بريء خالص من كل عيب ، فإن من المحال أن يتصف سؤال الملائكة إلا بما يليق بتقديسهم لله جل جلاله .

على هذا الأساس سألوا ربهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ، وعلى هذا الأساس أجيبوا : ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وحين علموا قالوا : ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

فأثنى الله على نفسه بما هو له أهل : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

وأيا ما كان الأمر فهذا الحوار بين الله وملائكته إنما كان لإظهار جوانب الخير فى الإنسان ، والكشف له سلفا عن أوليائه وأعدائه ومن هنا كانت نتيجة هذا الحوار ذلك الموقف الذى يبين طاعة الملائكة لله سبحانه ونوع صلتهم بآدم وأبنائه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ ، وفى الجهة الأخرى يبين معصية إبليس وجنوده لله سبحانه ونوع صلتهم بآدم وأبنائه : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وآية الكهف رقم (٥٠) تُبين موقف الملائكة الموالى للإنسان وتنهى بشدة عن اتخاذ الشيطان وذريته أولياء ، وآيات غيرها فى القرآن كثيرة تبين الموقفين : موقف الولاء من الملائكة ، وموقف العداء من الشياطين .

وهكذا بدأت محاولات إبليس فى الكيد للإنسان : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة:٣٥، ٣٦] ، وبعد جولة واسعة لإبليس مع أجيال من ذرية آدم من بنى إسرائيل عادت الوحدة الموضوعية لسورة البقرة كى تذكرنا من جديد بصحبة الملائكة وموالاتهم ، وتحذرنا من معاداتهم .

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧، ٩٨] .

لقد ترك للإنسان أن يختار بين أحبابه وأوليائه من الملائكة وبين أعدائه من إبليس وأعوانه . وكانت هذه الحرية ، هى القضية الأساسية التى سأل عنها الملائكة المكرمون .

٣ ـ تبقى التفسيرات التى ذهب إليها المفسرون لآية الأعراف : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ ، وللأحاديث النبوية الشريفة التى ذكرناها هناك .

وهل المراد بالإشهاد المأخوذ من قوله تعالى : ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ، فطرهم على التوحيد أم أخذ الميثاق ؟

وسواء أكان هذا أو ذاك ، فلا شك أن مزيدا من تأكيد الحرية يضيفه أى من التفسيرين للإنسان .

فمع احتمال كون « الإشهاد » فطرًا على التوحيد يبدو تأكيد الحرية الإنسانية فى رؤيتنا لكثرة كاثرة من الناس يمضون فى اتجاه مضاد لهذه الفطرة بحرية كاملة دون أن يعترض طريقهم ملك أو قدر ، وتلك لعمرى حرية مغرقة فى التحدى والتمرد والعصيان ، وسيتحمل أصحابها تبعتها ومسئوليتها . لكن تبقى مع ذلك دلالتها على قدرة الإنسان وحريته فى أن يولى وجهه الوجهة التى يريد ، حتى لو كانت

مخالفة لشريعة الله سبحانه .

أما لو كان « الإشهاد » هو أخذ العهد والميثاق فما أبلغ دلالته على الحرية الإنسانية حينئذ ، فما يؤخذ عهد أو موثق إلا من قادر على أن يفى أو يجحد ، بهدف استثارته للوفاء بما أخذ عليه العهد أن يلتزمه ، وإلا فما الداعى لأخذ العهد والميثاق من مكره أو عاجز لا يملك طرفى موضوع الموثق فعلا وتركا ، وإذن فالإشهاد بمعنى أخذ الميثاق حجة تخدم قضية الحرية .

والخلاصة أن النصوص التى تضمنت هذه الأمور الثلاثة « الأمانة » و« الخلافة » و« الإشهاد » كما دلت على قضية المسئولية منذ النشأة الأولى للإنسان .

فإنها من جانب آخر دلت على أن الحرية من أهم عناصر هذه المسئولية المعتبرة فى الإسلام ، والاعتراف لها بالقيم الإيجابية الفعالة المرضية .

وأى انتقاص لهذه الحرية الواعية ولو من داخل الإنسان نفسه يستوجب نقص هذه القيم فى المسئولية ، ويستلزم فقدانها لبعض عناصرها المرضية ، وإحلال غيرها مكانها حيث يتعرض أصحابها إلى أن يكونوا أسرى النفاق الاجتماعى أو السياسى بعد أن فقدوا شجاعة الحرية والصدق مع أنفسهم ، ويمكن أن نستشعر هذه الصورة حديث فى القرآن الكريم عن بعض هذه الحالات : ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤] .

هكذا يوفر الخالق جل وعلا عناصر الحرية الإنسانية ، يمنح الإنسان هذه الحرية بالفطرة محملا إياه هذه الأمانة مستخلفا له عن الله سبحانه .

وهو ثانيا يحمى هذه الحرية من عدوان الغير والنفس على حد سواء .

وهو ثالثا ـ كما سيأتى ـ يركب فى الإنسان الدعائم التى تحفظ وتصون له حريته وقيمها الرفيعة ، وينمى بها شخصيته طوال مسيرته فى هذه الحياة .

obeikandl.com

الفصل الثانى
كيف تنمو الإمكانات والقدرات
وكيف تنمو بنموها التكاليف والمسئوليات عقليا وعضويا ؟

الإمكانات والقدرات :

إذا كانت يد الله سبحانه تولت تهيئة الإنسان منذ نشأته الأولى لتحمل أعظم المسئوليات وأشرفها ، فليس غريبا أن يزود الله عباده بالإمكانات والقدرات التى تمكنهم من أداء واجبات هذه الأمانة الثقيلة وفى مقدمة هذه الواجبات إن لم تكن أخطرها واجبات الحفاظ على أهلية إدارة المال الذى هو عصب الحياة وفق قيم الإسلام .

وإنه لمن أعظم دلائل القدرة الإلهية ، تلك الصورة المدهشة التى ركَّب الله فيها خلقه من الناس ، وصدق الله العظيم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦ ـ ٨] ، ولعل الذى ينظر فى شروط الوجوب [١] من أبواب الفقه الإسلامى يجد تلخيصا مركزا للإمكانات والقدرات التى تصاحب مسئولية التكليف ، وأبرز هذه الشروط التى تكمن فيها

---

(١) شروط الوجوب تختلف من عبادة لأخرى وهى مثلا عند ابن جزى فى الطهارة عشرة شروط : الإسلام والعقل والبلوغ وارتفاع دم الحيض ودخول الوقت وعدم النوم وعدم النسيان وعدم الإكراه ووجود الماء أو الصعيد والقدرة على الفعل . « كتاب القوانين لأبى القاسم الكلبى الغرناطى ص ١٦ طبعة الرباط ١٩٦٢م » ، ومثل هذه الشروط فى شرح أبى الحسن لرسالة ابن زيد القيروانى ، لكن العلامة العدوى قسم هذه الشروط إلى شروط وجوب فقط ، وشروط صحة فقط ، وشروط وجوب وصحة معًا « حاشية العدوى على شرح أبى الحسن المذكور ص٩٧ ، المطبعة الأزهرية » .

القدرات الضرورية للمسئولية هى البلوغ ، والعقل ، والاستطاعة ، وسنتناولها من زواية المسئولية إن شاء الله .

تكامل إمكانات المسئولية فى الشريعة بين البلوغ والعقل والاستطاعة :

١ ـ البلوغ :

الذى يراجع مسألة تحديد سن الرشد الذى يؤهل صاحبه للمسئولية يلاحظ بسهولة اختلاف العقول البشرية فى تحديدها ، ومن هنا تختلف القوانين البشرية لكثير من الدول فى اعتبار الراشد مسئولا مسئولية كاملة عند أى سن يصلها ، ومنشأ هذا الخلاف يعود أساسا إلى تحديد الوقت الذى يتم فيه نمو الإدراك العقلى والمعرفة للنتائج المترتبة على الأفعال .

ونحن إذا تركنا اختلافات القوانين التى صنعتها عقول البشر ، ويممنا وجهنا شطر الإسلام وجدنا نظاما فريدا غاية فى التكامل والإحكام ، فقد يراعى الإسلام أعمار الناشئة فى أمور فرعية معينة ، ولكن مسألة الرشد المقترن بالتكليف أو بتحمل المسئولية لها قاعدة ليس لها نظير ، وهذه القاعدة تتصف بالتكامل والمرونة والثبات والدقة .

وتتلخص هذه القاعدة فى تمام الأهلية للمسئولية عندما يصبح الفرد الإنسانى قادرا على الإنجاب ، وعبر عنه الفقهاء تارة « بالبلوغ » ، وتارة أخرى بكلمة « التكليف أو الإدراك » فيقولون : أن يكون بالغا ـ أو مكلفا أو مدركا ـ والإطلاق الأخير لما بين الأمرين من تلازم .

والذى يعنينا ذكره هنا هو أن نلفت النظر إلى تكامل هذه القاعدة ومرونتها ودقتها واطرادها وواقعيتها وتحقيقها للعدالة والرحمة .

أما التكامل فيتضح من ربط الإسلام النمو العقلى بالنمو الجسدى ، حيث حدد

البلوغ بالمعنى السالف الذكر بدءا للتكليف والمسئولية [١] .

وبلوغ الفتى سن الاحتلام وبلوغ الفتاة سن المحيض يشكل مرحلة نضوج عضوى واضح ، ويقترن هذا النضوج العضوى ـ فطرة وخلقة ـ بالقدرة الطبيعية فى العادة على تكوين أسرة ، ومعنى هذا : الدخول فى مرحلة المسئولية العملية مباشرة بمجرد بلوغ هذا السن ، إذن فوقت المسئولية فى الإسلام ، هو وقتها بالخلقة والفطرة .

٢ ـ العقل :

ومن وجهة أخرى ـ عن التكامل فى هذه القاعدة الإسلامية ـ فإنه إذا كان المقياس الإنسانى يقول : العقل السليم فى الجسم السليم ، فمعنى ذلك أيضا : أن نضوج الجسم فى هذه المرحلة غالبا يتبعه لا محالة نضوج فى العقل يؤهل صاحبه للمسئولية وتحمل تبعاتها .

واتصاف هذه القاعدة بالمرونة يتضح فى أن القاعدة تسير فى كل حالة على حدة ، وفق إمكاناتها الخاصة حيث يختلف سن النضوج من فتى إلى فتى ومن فتاة إلى فتاة ، فيأتى تطبيق القاعدة مرنا مع هذا التفاوت فى النضوج ، وبهذا كانت القاعدة الإسلامية بصيرة فى تنفيذها وتطبيقها ، وتنزهت عن نقيصة العمى القانونى الذى يتضح فى تحديد سن واحدة تشمل الجميع بلا استثناء ، رغم تفاوت سن الأهلية للمسئولية تبعا لتفاوت النضوج .

لكن هذه المرونة لم تمنع ثبات القاعدة الشرعية واطرادها بكل دقة ، من حيث أن للبلوغ علامات عضوية محددة معروفة ، تبدأ من تغير الصوت وانفلاق أرنبة الأنف

---

(١) لأهمية الحقوق المالية ومسئوليتها ، يرى جمهور الفقهاء أن ولى الصبى الذى لم يبلغ يلزمه أداؤها لتعلق الحق بالمال ذاته .

وإنبات الشعر إلى الاحتلام أو المحيض وقد توسع فى شرحها الفقهاء .

أما واقعية القاعدة التى نتحدث عنها فيكفى أن الإسلام جعل منطلقها من واقع الفطرة فى كل إنسان بذاته ، فلا يمضى عليه التكليف إلا إذا لمس بنفسه فى نفسه بوادره وشواهده ، وليس فوق الواقع الملموس حجة مقنعة أو برهان مؤثر .

وعظمة التشريع هنا أنه يأتى بالمسئولية مع تطور واقع الإنسان فى وقت مناسب يحس فيه الناشيء برغبة شديدة فى تحقيق ذاته وشخصه ، لدرجة يضيق فيها بتوجيه الكبار ضيقا شديدا ، لأنه ـ كما يتصور ـ أصبح واحدا من هؤلاء الكبار ، فمن الطبيعى والحالة هذه أن يوجه هذا الإحساس الفطرى توجيها نافعا وسليما بتحميله المسئولية التى سيتلقاها سعيدا بها ؛ لأنها أعانته على أن يجد ذاته ونفسه .

اتصاف هذه القاعدة بالعدالة والرحمة يأتى من زوايتين :

الأولى : وهى الخاصة بالعدالة ، أن نضوج العقل والجسم قد يتقدم عن السن التى حددها قانون وضعى آخر ، وحينئذ يكون تأخر المسئولية إهمالا بيِّنًا يفوت بسببه تطبيق العدالة .

والثانية : وهى الخاصة بالرحمة أن نضوج العقل والجسم قد يتأخر عن السن التى حددتها القوانين الوضعية ، فتأتى قواعد المسئولية فى الإسلام رحمة بأصحاب هذه الحالات حيث إنهم لم يكونوا قد تهيئوا بعد كى يتحملوا مسئولية كاملة عن أعمالهم .

وإذن فقد اتضح كيف تتصف القاعدة الإسلامية فى تحديد بداية التكليف بالتكامل فى الإمكانات ، والمرونة فى التطبيق ، والثبات فى المبدأ ، والواقعية فى المأخذ ، والعدل والرحمة فى المنهاج .

٣ ـ الاستطاعة :

ويتم التكامل وتتأكد المرونة ويمضى الثبات وتستقر العدالة ، وتزداد الرحمة حين

تضيف الشريعة قدرة فوق البلوغ والعقل ، يجب أن تتوفر للمكلف حتى تتم مسائلته تلكم هى : أن يكون البالغ العاقل مستطيعا .

والاستطاعة عامة فى كل تكليف ، إذ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ آخر سورة البقرة .

لكن أنواعها كثيرة فى كل تكليف فقد تكون بالصحة ، وقد تكون بالأمن ، وقد تكون بالمال وقد تكون بالعلم وقد تكون بالجاه ، وقد تكون بغير ذلك مما يناسب حال التكليف المنوط بالإنسان .

فلا يكفى فى فروض العين للتكليف بالحج مثلا كون المسلم بالغا عاقلا إذ لابد أن يكون إلى جوار ذلك مستطيعا ، والاستطاعة فى هذا المقام صحة ومال وأمن .

وفى فروض الكفاية ، من واجب الجماعة أن توفر احتياجات المسلمين من التخصصات المختلفة وعليها أن لا تكلف بها إلا من تأنس فيه الاستطاعة لإجادتها وإتقانها ، وتدور الاستطاعة فى هذا المقام على الخبرة والعلم فى هذه المجالات .

والولاية العامة لسياسة أمور الدين والدنيا واجب عام على الجماعة ولكن لا يقوم به إلا من تتوفر فيه الاستطاعة لعبئها الثقيل ، وهى هنا حسن التدبير والعلم والتقوى والعدالة ..... وهلم جرا .

ونخلص من ذلك إجمالا إلى تكامل قاعدة التكليف فى الإسلام بهذه القدرات الرئيسة الثلاث : البلوغ ، والعقل ، والاستطاعة .

هذا التكامل ملحوظ فى أدلة التكليف :

ويلاحظ امتداد هذا التكامل فى النصوص الشرعية ، حيث نجد أدلة التكليف بالبلوغ تحمل فى طياتها معنى تمام العقل وكمال الاستطاعة ، ثم نجد بعد ذلك أدلة التكليف العامة فى الجزئيات المختلفة تحمل نفس المعنى .

أما الأدلة الدالة بشكل مباشر على المسئولية بالبلوغ فمثالها النص التالى :

روى الإمام أحمد عن عائشة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « **رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يحتلم وعن المجنون ـ وفى رواية وعن المعتوه حتى يعقل** » .

وعنها من طريق أن رسول الله ﷺ قال : « **رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المبتلى حتى يبرأ ، وعن الصبى حتى يعقل** » [1] ، أما أدلة الجزيئات المختلفة العامة فمثلا لا يكاد يفرق المتأمل فى النصين التاليين بين وظيفة العقل والعين لشدة تلاحمهما باعتبار الحواس والجوارح سبلا ومنافذ لتزويد العقل بالخامات الأولية التى يصنع منها معارفه ومعلوماته .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ .

[الأعراف:١٨٥]

وقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ .

[الغاشية:١٧ ـ ٢١]

بل ولقد أصبحت كلمة « النظر » ، أو كلمة « التأمل » صالحة الدلالة على مجرد التفكير ، ولو كان التفكر صادرا ممن فقد حاسة النظر ، وصدق الله العظيم : ﴿فَإِنَّهَا

---

(١) أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين والأربعة وقال الترمذى حديث حسن (ص ٢٣٨ ج٢ الفتح الربانى .

قال ابن حجر فيما ذكره المناوى : ورواه أبو داود والنسائى وأحمد والدار قطنى والحاكم وابن حبان ، وابن خزيمة من طرق عن على ، وفيه قصة جرت له مع عمر ، وعلقها البخارى . والرواية التى ذكرها المناوى « وعن الصبى حتى يكبر » ثم قال : وفى رواية : « حتى يشب » ، وفى رواية : « حتى يبلغ » ، وفى رواية : « حتى يحتلم » ، (ص ٣٥ خ ٤ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى) .

لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦] .

كما أن السمع والعقل جاءا فى القرآن متلاحمين فى مثل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : آية ١٠] .

ونفس المعنى يسهل إدراكه من أدلة الشرع على العقل وارتباطها بالنضج العضوى والجسدى ، واحتوائها لمعنى القدرة والطاقة والاستطاعة وكذلك أدلة الاستطاعة .

فالسمع ، والبصر ، واللسان ، والشفتان ، وغيرها من الوسائل العضوية كالأيدى والأرجل ونحوها من الحواس الإنسانية التى يتحقق « البلوغ » بتمام نضوجها حالما يصبح المرء قادرا على الإنجاب . هذه الحواس وتلك الأعضاء توجد فى عوالم الحيوان الكثيرة التنوع ، بل ووجودها فى هذه العوالم يكون بصورة أكثر بأسا وأشدة قوة منها فى الإنسان .

ومن هنا فهى حين تذكر فى القرآن أو السنة منسوبة للإنسان تذكر متكاملة مع الإمكانات المعنوية والعقلية ، بمعنى أن يكون الهدف الأسمى من وجودها مرعيا حين تذكر ، ولذلك فإن إهمال أهدافها من جانب الإنسان يلحقها فورا ــ فى منطق الوحى ــ بحواس العجماوات الأخرى ، وعلى هذا الضوء يمكننا أن نستعرض بعض الأدلة التى تناولت بعض الحواس الإنسانية .

فعن القلوب والأعين والآذان قال تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ .

[الأعراف:١٧٩]

قال ابن كثير : يعنى لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية ، كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس إلا فيما يقيتها .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦] .

وقال تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

[النحل:٧٨]

وقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦] .

وعن المشى بالأرجل والكلام باللسان قال تعالى : ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ﴾ [لقمان:١٩] .

وقال تعالى : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾

[الإسراء:٣٧]

وعن اللسان والشفتين قال تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٨ ـ ١٠] .

تهيئة النفس للمسئولية من قبل البلوغ :

تأتى أدلة التشريع فوق أرض معبدة مهيأة للغرس الطيب والمسيرة الصالحة ، فمن الآداب الإسلامية مثلا ، أدب الاستئذان ، وقد جاءت سورة النور بتفصيلات عن هذا الأدب الكريم شملت أسلوب الاستئذان على الأجانب ، وظهر فى سياق هذه السورة الكريمة وهى تعالج أدب التطور الذى يعترى الطفل عند بلوغه الحلم ، فقد طلب من ذوى الأطفال أولا أن يعلموهم هذا الخلق وكيفية تطبيقه والأوقات التى يطبق فيها ، ثم عند وصولهم مرحلة البلوغ عوملوا معاملة الرجال المكلفين .

قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ

ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [النور:٥٨] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [النور:٥٩] .

قال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير : الغلام يستأذن فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليسأذن على كل حال .

وهكذا قال سعيد بن جبير عن ابن كثير فى تفسير سورة النور بتصرف يسير وقوله تعالى : ﴿ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ يعنى كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه وقوم تقدم حكمهم فى آيات الاستئذان العامة فى نفس سورة النور .

وقد أوردنا فى إعداد الأبناء وتربيتهم كى يعدوا مبكرين للمسئولية التى تنتظرهم أحاديث مطالبتهم بالصلاة وهو أبناء سبع وتأديبهم عليها وهم أبناء عشر ، ونحوها فى غير هذا المكان من الكتاب ؛ ولذا نكتفى بهذا القدر ، حتى ننتقل إلى موقف السنة من تكامل التكليف والمسئولية .

ودلالة السنة المطهرة على هذا التكامل تبدو فى هذه المجموعة من أحاديث النبى ﷺ :

ففى الألسن والأيدى والفروج وهى فى مقدمة الحواس التى تعرض صاحبها للمسئولية .

روى البخارى فى كتاب الرقاق أن رسول الله ﷺ قال : « **من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة** »[1] .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق .

وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** » (١) .

وروى البخارى عن أبى موسى ﷺ قال : قالوا : يا رسول الله ، أى الإسلام أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » (٢) .

نموذج اجتماعى تنموى :

وقبل أن ننتقل إلى عموم الجوارح ، سنقف وقفة قصيرة مع مسئولية اللسان فى السنة لنرى نموذجًا فذا من التكامل فى المنهاج والتطبيق مع مسئوليات جارحة واحدة من الجوارح كجزئيةواحدة فى هيكل المنهاج الكبير للمسئولية الإنسانية ، يؤدى تطبيقه إلى تنمية اجتماعية إيجابية فى تقوية العلاقات والثقة وطبع الحياة بطابع الاستقرار والإنتاج .

ففى مسئولية اللسان روى البخارى عن أم سلمة ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : « **إنما أنا بشر ، وأنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها** » (٣) .

وهذا يؤدى إلى تنمية محاسبة النفس ورقابة الله فى الباطن حيث ينعكس ذلك على سائر السلوك والمشاعر .

وفى مسئوليته كى يصمت ولا يتكلم أيضا روى البخارى عن ابن عمر قال : دخلت على حفصة ـ أى أخته أم المؤمنين ﷺ ـ ونسواتها تنظف ـ أى قرون رأسها تفطو الماء ـ قلت : قد كان من أمر الناس ما ترين ، فلم يجعل لى من الأمر شيء ـ

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

يقصد حادثة التحكيم بصفين ـ قالت : إلحق ، فإنهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون فى احتباسك عنهم فرقة ، فلم تدعه حتى ذهب فلما تفرق الناس خطب معاوية ، قال : من كان يريد أن يتكلم فى هذا الأمر ، فليطلع لنا قرنه ، فلنحن أحق به منه ومن أبيه . قال حبيب بن مسلمة : فهلا أجبته ؟

قال عبد الله : فحللت حبوتى ـ يقصد أنه تهيأ للكلام بحل ثوبه أو يديه عن ركبتيه ـ وهممت أن أقول : أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام . فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع ، وتسفك الدم ، ويحمل عنى غير ذلك ، فذكرت ما أعد الله فى الجنان .

قال حبيب : « حفظت وعصمت »[1] .

ففى هذا الحديث تبدو ظاهرة المسئولية عن الكلمة فى حبس اللسان عن النطق بكلمة حق ، وفى الحديث السابق حبسه عما يروج لغير الحق فى موقف قضائى ، وكلا الموقفين مبتغى بهما وجه الله عز وجل ويؤديان إلى توفير الطمأنينة والأمان على المستوى الفردى والاجتماعى .

وتبدو المسئولية عن كلمة اللسان فى أشد صورة من الحسم لحبس اللسان عنها فيما يمس الاعتقاد أو العلاقة الزوجية .

روى البخارى عن ثابت بن الضحاك ـ وكان من أصحاب الشجرة ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال ، وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك ، ومن قتل نفسه بشئ فى الدنيا عذب به يوم القيامة ، ومن لعن مؤمنا فهو كقتله ، ومن قذف مؤمنا فهو كقتله** »[2] .

وتتفرع عن هذا المبدأ ـ مبدأ الكف عن الأذى للنفس أو للغير بالكلام ـ عدة

---

(١) البخارى فى كتاب المغازى .

(٢) البخارى كتاب الأدب .

آداب وواجبات أساسية فى الإسلام . فكف اللسان عن قول الزور من أوجب ما ينبغى على المسلم أن يأخذ به نفسه ، وفى هذا روى البخارى عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال . قال رسول الله ﷺ : « **أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وشهادة الزور « ثلاثا » أو قول الزور** » ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت [١] .

وكف اللسان عن الغيبة والنميمة لا يقل خطورة فى الوجوب عن سابقه ، فهما من الكبائر التى تدمر المجتمع ، فقد روى البخارى عن همام قال : كنا مع حذيفة فقيل له : أن رجلا يرفع الحديث إلى عثمان ، فقال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يدخل الجنة قتات** » [٢] .

عثمان هو : ابن عفان أمير المؤمنين كما فى الفتح .

القتات هو : النمام .

وأخرج أبو يعلى عن البراء قال : خطبنا رسول الله ﷺ وسم حتى أسمع العواتق فى بيوتها ، أو فى خدورها فقال : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه جوف بيته** » [٣] .

عن آنس ابن مالك ﷺ قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضا فى الأسفار ، وكان مع أبى بكر وعمر ﷺ رجل يخدمهما ، فناما فاستيقظا ولم يهيئ لهما طعاما فقالا : إن هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا : إيت رسول الله ﷺ فقل له : إن أبا بكر وعمر ﷺ يقرئانك السلام ويستأدمانك . فقال ﷺ : « **أنها قد ائتدما** » ، فجاءا فقالا : يارسول

---

(١) البخارى كتاب أستتابه المرتدين .

(٢) متفق عليه .

(٣) قال الهيثمى ورجاله ثقات ، وأخرج البيهقى عن البراء نحوه كما فى الكنز ج ٨ ص ٢٠٠ .

الله بأى شئ ائتدمنا فقال ﷺ : « **بلحم أخيكما ، والذى نفسى بيده ، إنى لأرى لحمه بين ثناياكما** » ، فقالا رضي الله عنهما : استغفر لنا يارسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « **مراه فليستغفر لكما** » [١] .

كذلك تتضح مسئولية كف اللسان فى مقام الفتوى عند عدم العلم بجوابها .

روى البخارى عن عروة قال : حج علينا عبد الله بن عمرو فسمعته يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « **إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم ، فيضلون ويضلون** » ، فحدثت عائشة زوج النبى ﷺ ، ثم إن عبد الله بن عمرو حج بعده ، فقالت : يابن أختى : أنطلق إلى عبد الله فاستثبت لى منه الذى حدثتنى عنه ، فجئته فسألته فحدثنى به كنحو ما حدثنى ، فأتيت عائشة فأخبرتها فعجبت فقالت : والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو [٢] .

ومن هذه المسئوليات الخاصة بجارحة اللسان ضرورة الكف عن التناجى إذا أثر على مشاعر الآخرين .

روى الإمام البخارى عن مالك عن نافع عن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث** » [٣] ، ومنها مسئولية الكف عن المديح الضار .

روى البخارى عن أبى موسى قال : سمع النبى ﷺ رجلا يثنى على رجل ويطريه فى المدحة فقال : « **أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل** » [٤] .

---

(١) رواه الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المختار ، من طريق حسان بن هلال عن حماد بن سلمه عن ثابت .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) البخارى كتاب الأدب .

وروى البخارى عن أبى بكرة أن رجلا ذكر عن النبى ﷺ ، فأثنى عليه رجلا خيرًا ، فقال النبى ﷺ : « **ويحك قطعت عنق صاحبك ـ يقوله مرارا ـ إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل : أحسب كذا وكذا ، إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله ، ولا يزكى على الله أحدًا** » (١) .

وهذا الأدب يؤدى إلى حماية التنمية فى انطلاقها من داء الغرور الذى يقصم الظهور ، ظهر القائم بالعمل ، وظهر العمل نفسه .

ومنها مسئولية عدم التكلف فى استحداث أسئلة عما سكت عنه الشارع .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها : « **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم كثيرا** » ، قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين ، فقال رجل : من أبى ؟ قال : « **فلان** » ونزلت هذه الأية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

[المائدة:١٠١]

يقول ابن كثير وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم** » (٢) .

وفى الحديث الصحيح أيضاً : « **إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها** » .

أجل : فالأمة التى تنمى نفسها وأفرادها بالعمل الجاد ، ليس لديها الوقت لمثل هذا اللغو أو الجدل فى غير ما تدعو إليه الحاجة .

---

(١) البخارى كتاب الأدب .

(٢) تفسير ابن كثير .

ومن مسئوليات اللسان الكف عن السباب .

ففى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **سباب المسلم فسوق وقتله كفر** » [١] .

ويلاحظ أن هذه المسئوليات جميعها يطلب فيها كف اللسان عن النطق بهذه المآثم ، بيد أن هناك مسئوليات يطلب فيها أن يضاعف اللسان من وظيفته الإيجابية بالكلام والنطق .

فى مقدمة هذه المسئوليات تبليغ الدعوة :

فمن حديث رواه الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أنه قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه** » [٢] .

وروى الإمام البخارى عن أبى بكرة ، ﷺ قال : خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال [٣] : « **أتدرون أى يوم هذا ؟** » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « **أليس يوم النحر ؟** » قلنا : بلى ، قال : « **أى شهر هذا ؟** » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : « **أليس ذا الحجة ؟** » قلنا : بلى ، قال : « **أى بلد هذا ؟** » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : « **أليست البلدة ؟** » قلنا : بلى قال : « **فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت ؟** » قالوا : نعم ، قال : « **اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض** » .

---

(١) تفسير ابن كثير (سورة البقرة) .

(٢) ص ١٦٤ ج ١ الفتح الربانى شرح مسند أحمد .

(٣) رواه أحمد والبخارى .

قال الإمام الشوكانى : « قوله اللهم اشهد » إنما قال ذلك لأنه كان فرضا عليه أن يبلغ ، فأشهد الله تعالى على أداء ما أوجبه عليه .

قوله : « فرب مبلغ » بفتح اللام : أى رب شخص بلغه كلامى فكان أحفظ له وأفهم لمعناه من الذى نقله له .

قال المهلب : فيه أنه يأتى فى آخر الزمان من يكون له من الفهم والعلم ما ليس لمن تقدمه ، إلا أن ذلك يكون فى الأقل ؛ لأن رب موضوعة للتقليل [١] .

ومن هذا النوع من المسئوليات مسئولية النصيحة فإنها تشمل اللسان كما تشمل غيره . أخرج ابن عساكر عن أبى الدرداء ﷺ : « لا إسلام إلا بطاعة ولا خير إلا فى جماعة ، والنصح لله وللخليفة وللمؤمنين عامة » [٢] .

ومن المسئوليات الإيجابية فى وظيفة اللسان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

روى الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « **من رآى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** » [٣] .

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال : « **والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم** » ، ومنها إفشاء الكلام الطيب ونشر السلام [٤] .

روى البخارى عن عدى بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال : « **اتقوا النار ولو بشق**

---

(١) نيل الأوطار ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ ج ٣ .

(٢) كذا فى الكنز ج ٨ ص ٢٢٧ ـ كما أورده الكاندهلوى فى الجزء الثالث من كتاب حياة الصحابة ص ٥٧٢ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أحمد .

تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة » [١] .

ومنها المعاملة بالمثل فى الهجوم على أعداء الدعوى ، وأهل الشرك والباطل .

روى البخارى عن البراء ﷺ قال النبى ﷺ لحسان : « أهجهم أو هاجهم وجبريل معك » [٢] .

ومنها غير ذلك من المسئوليات بالصمت أو بالكلام مما يطول ذكره ، بيد أن ما ذكر كاف فى إظهار التكامل فى المنهاج من حيث موقف السنة من مسئوليات جارحة واحدة فضلاً عن جميع الجوارح ، من حيث حجم تأثيرها الطيب فى تنمية الفرد والجماعة إذا هى تضافرت وتآزرت فى الوفاء بمسئولياتها والتزاماتها .

ونختم هذه الطائفة من الأحاديث النبوية التى تبين مسئوليات الأعضاء والجوارح بحديث واحد شامل عام لكل الحواس والأعضاء والمفاصل التى يحتويها البدن .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة ، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها ، أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة » [٣] .

وهكذا لم يدع هذا الحديث زاوية من زوايا تنمية المجتمع إلا وطالب كل عضو من أعضاء الإنسان أن يسهم فيها طاعة لله ورسوله .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) متفق عليه .

(٣) البخارى « والسلامى » الجارحة والعضو السّلامى : عظام الأصابع فى اليد والقدم ، فبقدر ما فى الإنسان من جوارح ، وبقدر ما فى المجتمع والحياة من واجبات يطلب من المسلم أن يشارك بالعمل الذى يعود بالخير عليه وعلى مجتمعه .

أدلة البلوغ فى السنة كحد تشريعى فاصل :

وتأتى بعد ذلك أدلة البلوغ المباشرة فى السنة المطهرة :

روى البخارى عن أم سلمة ﵂ قالت : جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله ، إن الله لا يستحى من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ قال النبى ﷺ : « **إذا رأت الماء** » فغطت أم سلمة تعنى وجهها ، وقالت : يارسول الله وتحتلم المرأة ؟ قال : « **نعم تربت يمينك ، فبم يشبهها ولدها ؟** » [١] .

وروى أبو داود عن خالد بن دريك عن عائشة ، أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « **يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذا** » ، وأشار إلى وجهه وكفيه ، « قال أبو داود : هذا مرسل ، خالد بن دريك لم يسمع من عائشة » .

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « **الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم** » .

وروى البخارى قال : قال على لعمر : « **أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يدرك ، وعن النائم حتى يستيقظ** » [٢] .

ومن هذه الجولة المتعجلة فى رحاب السنة المطهرة نخلص بأن موقف السنة يتوافق مع موقف القرآن الكريم فى مسئولية الحواس والأعضاء التى يتحقق البلوغ بنضوجها ، ويتضح هذا التوافق جليًّا فى توزيع المسئولية أو التكاليف على جميع الحواس والأعضاء فى كل من القرآن والسنة فى تناسق تام وتلاحم رائع ، هذا بالإضافة إلى التماسك والتكامل بين مسئولية الجسم ومسئولية العقل .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) البخارى كتاب المحاربين

فقد رأينا ظاهرة التلاحم بين هذه الإمكانات العضوية وبين أهدافها العقلية المعنوية ، وكان النموذج المتكامل الذى أضفنا دراسته عن مسئوليات اللسان وكيف تؤدى إلى منهاج مفصل سواء بالصمت أو بالنطق فى أرفع وأرقى درجات المسئولية مثالا توضيحيا لما نقول .

هذا وقد تناولت الأحاديث النبوية الحواس بأسلوب أخاذ ومقنع تتجلى فيه ظاهرة الإقناع والتأثير إلى أبعد حدودها عقلا وعاطفة ، فمن بيان لعلة الحكم إلى رواية صادقة للاستفادة بتجربة السابقين ، إلى ترغيب وتحذير ، مما لا يخفى عند النظر فى نصوص الأحاديث .

كذلك فإن الدور التشريعى للسنة كحد فاصل فى التكاليف من جهة يبدو بوضوح فى الأدلة النبوية المباشرة فى البلوغ ، ومن جهة آخرى يقال هنا عن واقعية التشريع وتوافقه مع المصلحة ما قيل عن الأدلة القرآنية هناك ، فى ضوء قواعد العدل والرحمة والمرونة والتحديد والشمول .

ولا حاجة بنا للقول بأن هذه النصوص التى قدمناها من القرآن والسنة ، إنما كانت تعالج مباشرة الإمكانات والقدرات البدنية والمادية بصورة مباشرة ، أى أن إيرادها كان فى إطار القدرات والإمكانات العضوية التى عبر الاصطلاح الشرعى عن مجموعها بالبلوغ أو الإدراك ومن هنا أفرد الفقهاء شرط الإمكانات العقلية بصورة مستقلة تحت عنوان « العقل » كما أفردوا لنضوج القدرات الجسدية شرطا مستقلا تحت عنوان « البلوغ » ، الذى فرغنا تواً من عرض أدلته فى القرآن والسنة ، أما ما ورد فى خلالها متعلقاً بالأهداف العقلية والمسئوليات الشرعية وغاياتها ، وعلاقة ذلك كله بشرط الاستطاعة ، فإنما كان ذلك كله من باب إبراز التلاحم والتكامل وتمام التناسق فى قواعد المسئولية التى أوردتها نصوص القرآن والسنة ، والتى كان من أهداف هذه الدراسة إبرازها وتوضيحها .

من هنا فلا زال وراءنا أن نعرض الحالة الواقعية لارتباط حجم المسئولية بمستوى القدرة العقلية والبدنية .

ثم نعرض هذا الواقع من خلال الأدلة العامة والشاملة لارتباط هذه القدرات فى القرآن والسنة .

ارتباط حجم المسئولية بمستوى القدرة العقلية والبدنية من الناحية الواقعية :

يرتبط حجم المسئولية ارتباطاً وثيقاً بمستوى القدرة العقلية والبدنية وجوداً وعدماً .

فتتوقف المسألة كليًّا بفقدان العقل كليًّا ، بينما تتوقف بصفة مؤقتة عند وجود القيود أو العوائق المؤقتة التى تمنع العدل من أداء وظيفته . فالفقد الكلى للعقل كالجنون . والعوائق المؤقتة كالنوم والإغماء والنسيان .

ومن هنا نص فقهاء الإسلام على اشتراط العقل للوجوب والتكليف ولابد من الإشارة هنا إلى التكامل فى هذه القاعدة .

١ ـ تكامل القاعدة :

القاعدة المقصودة هنا فى ربط حجم المسئولية بالقدرة العقلية ، وقد تتداخل القوى العقلية فى بعض المواقف مع القوى الجسدية ، وقد تنفصل .

ولما كان العقل هو القائد المدبر لكل هذه القوى الجسدية وحركاتها فقد اخترنا عرض تكامل القاعدة فى الحالات المختلفة التى تلتقى فيها القوى العقلية والجسدية أو تنفصل ويتبلور تلاحقهما مع الاستطاعة .

فالنوم والإغماء مثلا يعطلان فى وقت واحد القدرتين العقلية والجسدية معاً ، وبالتالى يفقد الإنسان استطاعته .

والنسيان يعطل عمل العقل فيما نسيه الإنسان ، بينما تظل قواه الجسدية صالحة

للعمل . ويسقط الأمر المنسى من متناول الإرادة فتتعطل نسبياً الاستطاعة فى هذه الجزئية المنسية .

أما الإكراه فتبقى فيه القدرة العقلية يقظة مدركة ، بينما تجبر القدرة الجسدية على العمل تركا أو فعلا وفق ما يريده المكره ، وتتعطل عن العمل الحر وفق إرادة صاحبها .

كما أن هناك حالة أخرى وهى حالة المرض العضوى الذى يعطل القوى الجسدية فحسب ، بينما تظل القوى العقلية فى سلامة وعافية ، ولكن المرء لا يكون مستطيعاً .

بل وهناك العوارض الطارئة التى قد تؤثر على القوى الجسدية والنفسية كالسفر والمطر ، وهذه الحالات يراعى الإسلام فيها نوعا من التخفيف بالنسبة لبعض التكاليف والواجبات .

ويطيب لنا أن نكرر أننا أدمجنا هذه الحالات مع الاستطاعة لأسباب أربعة :

أولاً : لأن الأدلة الرئيسية فى القرآن والسنة كانت عامة لهذه الأحوال كلها .

ثانياً : لإبراز تكامل قاعدة ارتباط المسئولية بالقدرات جميعها على قدم المساواة .

ثالثاً : لأن الحالات الثلاث الأخيرة مظنة التأثير بالإرهاق والإنهاك على جميع قوى الإنسان العضوية والعقلية ، وهذا نوع من تجاوب التكامل فى الدين والفطرة .

رابعاً : ولأن كل ذلك متداخل متلاحم مع « الاستطاعة » التى ستحتويها نفس الأدلة ، باعتبار الاستطاعة محصلة طبيعية للقدرات المختلفة عقلية وجسدية وغيرهما .

وهكذا ننتهى بنفس الاتجاه الذى بدأنا به الموضوع كله آنفاً عن التلاحم والتكامل بين شروط العقل والبلوغ والاستطاعة .

٢ـ الأدلة العامة الشاملة :

قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] .

وعن محمد بن المنكدر أنه سمع أميمة بنت رقيقة تقول : بايعت رسول الله ﷺ فى نسوة فقال لنا : « **فيما أستطعتن وأطقتن** » .

قلت : الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا . فقلت : يارسول الله : بايعنا ، قال سفيان : تعنى صافحنا ، فقال رسول الله ﷺ « **إنما قولي لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة** » [(١)] .

وفى المجنون والصبى والنائم روى البخارى أن على بن أبى طالب قال : « ألم تعلم أن القلم رفع عن ثلاث : عن المجنون حين يفيق ، وعن الصبى حتى يدرك ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وقال : وكل الطلاق جائز ، إلا طلاق المعتوه » [(٢)] .

وفى معافاة الأمة مما لا تستطيعه بسبب الخطأ أو النسيان أو الإكراه روى ابن ماجه فى سننه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى عمرو الأوزاعى عن عطاء قال ابن ماجه فى روايته عن ابن عباس وقال الطبرانى وابن حبان عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** » .

وقد روى من طريق آخر وأعله أحمد وأبو حاتم والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى قال حدثنا مسلم بن ابراهيم قال حدثنا أبو بكر الهذلى عن شهر عن أم الدرداء عن النبى ﷺ : « **إن الله تجاوز لأمتى عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه** » ، قال أبو بكر : فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما

---

(١) قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وأخرجه النسائى وغيره ص ٢٢٠ ج ٥ تحفة الأحوذى .

(٢) البخارى ، باب الطلاق .

تقرأ بذلك قرآنا .

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (١) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أكل أو شرب ناسيا فلا يفطر ، فإنما هو رزق رزقه الله** » (٢) .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه** » (٣) .

ورفع الشارع الحكيم مسئولية الطلاق عن المكره ، وقد ترجم البخارى لأحد أبواب صحيحة فى الطلاق بالإكراه فقال : « باب إذا قال لامرأته وهو مكره هذه أختى فلا شئ عليه » .

ثم ترجم للباب الذى يليه فقال : « باب الطلاق فى الإغلاق والكره والسكران والمجنون وأمرهما والغلط والنسيان فى الطلاق والشرك وغيره » .

لقول النبى ﷺ : « **الأعمال بالنيات ، ولكل أمرى ما نوى** » ، وتلا الشعبى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ، وما لا يجوز من إقرار الموسوس .

وقال رسول الله ﷺ الذى أقر على نفسه : « **أبك جنون ؟** » .

وقال على : بقر حمزة خواصر شارفى ، فنطق النبى ﷺ يلوم حمزة ، فإذا حمزة قد ثمل محمرة عيناه ، ثم قال حمزة : هل أنتم إلا عبيد لأبى ؟ فعرف النبى ﷺ أنه قد ثمل ، فخرج وخرجنا معه (٤) .

---

(١) ابن كثير ج١ ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

(٢) قال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه البخارى ومسلم ج ٣ ، ص ٤١١ الأحوذى .

(٣) متفق عليه .

(٤) هذه الواقعة قبل تحريم الخمر وينسحب حكمها على السكران بحلال كالتعبير المألوف لجمهور الفقهاء .

وقال عثمان : ليس لمجنون ولا لسكران طلاق .

وقال أبن عباس :طلاق السكران والمستكره ليس بجائز .

وقال عقبة بن عامر : لا يجوز طلاق الموسوس [١] .

وفى رفع المسئولية عن حديث النفس حيث يتعذر أو يعسر كف الخاطر عن التردد روى البخارى عن أبى هريرة ﷺ ، عن النبى ﷺ قال : « **إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثت به أنفسها مالم تعمل أو تتكلم** » .

قال قتادة : إذا طلق فى نفسه فليس بشئ [٢] .

وفى السفر والمرض نسوق هذا النموذج لاشتماله على نظرات موضوعية للصحابة والفقهاء فى التقول التى تتعلق بالتيسير والتخفيف للظروف التى تعترى الاستطاعة .

قال تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] .

معناه : ومن كان به مرض فى بدنه يشق عليه الصيام معه ، أو يؤذيه ، أو كان على سفر ، أى فى حالة السفر فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام ، ولهذا قال : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] ، أى إنما رخص لكم فى الفطر فى حال المرض والسفر مع تحتمه فى حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم .

وهناك مسائل تتعلق بهذه الأية :

إحداها : أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيما فى أول الشهر ثم

---

(١) البخارى .

(٢) البخارى .

سافر فى أثنائه فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر ، وهذا القول غريب نقله أبو محمد ابن حزم فى كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وفيما حكاه عنهم نظر والله أعلم فإنه قد ثبتت السنة عن الرسول ﷺ : أنه خرج فى شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ، ثم أفطر وأمر الناس بالفطر [1] .

الثانية : ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار فى السفر لقوله : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ، والصحيح قول الجمهور أن الأمر فى ذلك على التخيير وليس بحتم ؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان قال :

فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم ، الصيام بل الذى ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان فى مثل هذه الحالة صائما لما ثبت فى الصحيحين عن أبى الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان فى حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة .

الثالثة : قالت طائفة منهم الشافعى :

الصيام فى السفر أفضل من الإفطار لفعل النبى ﷺ كما تقدم .

وقالت طائفة : بل الإفطار أفضل أخذا بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم فى السفر فقال : « **من أفطر فحسن ومن صام فلا جناح عليه** » .

وقال فى حديث آخر : « **عليكم برخصة الله التى رخص لكم** » .

وقالت طائفة : هما سواء لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمى قال : يا

---

(١) متفق عليه .

رسول الله إنى كثير الصيام أفأصوم فى السفر ؟ فقال : « **إن شئت فصم وإن شئت فأفطر** » [١] .

وقيل : إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلا قد ظلل عليه فقال : « **ماهذا ؟** » قالوا صائم فقال : « **ليس من البر الصيام فى السفر** » [٢] .

فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه لما جاء فى مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما : « ومن لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة » .

الرابعة : القضاء : هل يجب متتابعا أو يجوز فيه التفريق ، فيه قولان :

أحدهما : أنه يجب التتابع ؛ لأن القضاء يحكى الأداء .

والثانى : لا يجب التتابع بل إن شاء تابع وإن شاء فرق وهذا قول جمهور السلف والخلف لضرورة أدائه فى الشهر فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ولهذا قال تعالى : ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أ . هـ [٣] .

نقول : ويتضح من استعراض هذا النموذج أن النقول الشرعية كلها تستوعب الحالات المختلفة التى تعترى قدرات الإنسان وكفاءة إمكاناته ، وتبعا لذلك فقد يكون الصيام هو الأولى والأحب ، وقد يكون الإفطار هو الأولى عند وجود مقتضيه ، فالنصوص جميعها لها مواقفها التى تعمل فيها ، وتظهر حاجة الناس إليها وفق مستويات قدراتهم واستطاعاتهم .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

والخلاصة : أن البلوغ والعقل والاستطاعة فى سائر التكاليف تشكل معا حلقة محكمة فى عناصر المسئولية كما رأينا فى نصوص القرآن والسنة وتطبيقاتها ، وبالتالى تجعل خطة التنمية فى جميع المجالات مرتبطة بقدرات الناس وإمكاناتهم . وقدرات الناس وإمكاناتهم إذا تكاتفت وتساندت واعتصمت بحبل الله حققت ما يشبه المعجزات .

ومعنى ذلك أنه مهما كانت خطة التنمية طموحة فهى فى متناول المسلم إذا التزم منهاج الإسلام العظيم .

*****

obeikandl.com